الباب الثاني

في خضم الخامس والعشرين من يناير
ومسئولية الأحداث

فى خضم الخامس والعشرين ومسئولية الأحداث

لم تكن مظاهرات الخامس والعشرين من يناير هى أول مظاهرات للشباب المعارض والغاضب فى مصر ولم يكن الترتيب لها أن تكون آخر مظاهرة، بدليل أن تجمع المعارضة كان يعد لمظاهرات السادس من إبريل على أساس أنها الأكبر دائمًا فى التجمع والمشاركة.

ولكن التاريخ يقول أن مظاهرات الخامس والعشرين من يناير ٢٠١١ أخذت منحىً آخر ، وكان لها نتائج أخرى، وأهم هذه النتائج هى توحد كل الشعب مناديًا بسقوط النظام، وكان الهتاف الذى هتف به الشعب التونسي في ثورته (الشعب يريد إسقاط النظام)، والذى أصبح بعد ذلك هو النشيد الوطنى والقومى لكل الشعوب العربية فى المنطقة وكأن مؤلف هذا الشعار استلهم كل الماضى واستشرف المستقبل، وحتى هذه اللحظة لم نعرف من هو المؤلف العبقرى وراء هذا الشعار.

إن المتتبع للأحداث أثناء الخامس والعشرين لا يستطيع أن يلم بكل ما حدث فى ذلك الوقت لتسارع الأحداث، ولكن الآن نستطيع أن نلم ولو قليلاً بما حدث، فقد بدأت أحداث الخامس والعشرين من يناير كأخواتها من أحداث التظاهرات المعارضة فكان التجمع المنظم والمعد من قبل جماعات المعارضة الشبابية مثل جماعة (كلنا خالد سعيد)، وشباب (٦ إبريل)، و(كفاية) وغيرها، وكان الجميع يتوقع قمعًا من الأمن ومعه النظام، وسقوط بعض الضحايا ثم تفرق المتظاهرين فى مساء اليوم ،وانتهاء الفعاليات، ولكن هذه المرة كان تجمعًا كبيرًا ملحوظًا ومنظمًا وسلميًا، حتى أن قوات الأمن لم

تتعامل مع المتظاهرين، وهنا يبدأ أول الخيوط الغامضة، وهو: (لماذا لم يتعامل الأمن من البداية بالقسوة المعهودة مع المتظاهرين ؟) وقد بدا الأمر كما شاهده الجميع، كيف أن الأمن يحيط بالمتظاهرين حماية له، وكان الشكل العام حضارى ولفت انتباه الجميع، ولوحظ أن الأغلبية من المتظاهرين هم من الشباب أبناء الطبقة فوق المتوسطة والمتعلمة بل ونكاد نقول أنهم جميعًا من شباب الانترنت وبرامجه، وكان استعمال الإيميلات والتواصل بأجهزة المحمول ظاهرة ملفتة للنظر، حتى بدا أن هناك تنظيمًا وتواصلاً بين الشباب فى جميع أماكن التظاهرات والتى استقرت جميعها فى ميدان التحرير.

وهنا يبرز السؤال الثانى: (هل كان ميدان التحرير رمزًا متفقًا عليه للتجمع أم أنه جاء بصدفة الأحداث وتواليها؟) .

وبعد ذلك وبمرور الوقت لم نسمع لا عن بلطجة ولا عن شغب ولا عن تيارات إسلامية أو أى صورة من صور الفوضى والعنف .

وفى عصر يوم الخامس والعشرين لوحظ استعداد كافة القنوات الفضائية للتواجد فى داخل المظاهرات، وكان الأمر كما ولو أن الفضائيات كانت على علم مسبق بما سيحدث وأنها استعدت للحدث استعدادًا كبيرًا.

وهنا يأتى السؤال الثالث: (هل كانت القنوات الفضائية على علم بما سيحدث وهل كان لها دورًا كبيرًا فى اشعال نيران الأحداث ؟).

وفى يوم السادس والعشرين والسابع والعشرين بدأت بعض الجبهات تتحسس مكانًا لها فى الميدان وبدا وكأن ميدان التحرير كان هو كلمة السر في الأحداث، ورغم أن الأمن لم يكن تعامله على مستوى الأحداث إلا أن مستوى العنف فى تعامل

الأمن قد إزداد ومعه أيضًا بدأ الخوف يدب فى قلوب المتظاهرين من الشباب وذلك لقلة الخبرة فى هذا المجال، وقد صاحب هذا الأمر دخول شباب الإخوان الملحوظ إلى الميدان وكانوا كمن ينفذ أمرًا بالقتال، فاستأثروا بالمواجهة وبعجلة الأحداث وتزامن هذا العمل مع تزايد العنف من قوات الأمن ، ومع الغياب الملحوظ من أجهزة الدولة الرسمية والحزب الوطنى، وكانت الصورة وكأن الأمن يقف وحيدًا فى مواجهة المتظاهرين من جميع الأطياف.

هنا يطل السؤال الأهم والرابع: (أين كانت أجهزة الدولة من حكومة وحزب وطنى وديوان الرئاسة ؟).

وتستمر الأحداث ويتبين أن المظاهرات فى زيادة وانتشار وأن ميدان التحرير أصبح بؤرة الأحداث وأن تصدى الأمن بقسوته المعهودة لم يكن كافيًا ، وبدأنا نشاهد على الفضائيات صور البشاعة التى يتعامل بها الأمن مع المتظاهرين كما بدأت بعض الدول الصديقة وغير الصديقة للنظام فى التعليق على ما يحدث فى ميدان التحرير، وبدا الأمر وكأن هناك شيئًا غريبًا يحدث فى مصر .

فى وسط هذه الأحداث خرج ديوان الرئاسة من نومه وبدأت نغمة نزول الجيش وإعلان حظر التجول ثم تغيير الوزارة وتعيين عمر سليمان نائبا للرئيس فى إعلان وأضح بنهاية عهد التوريث لجمال مبارك، وظهر للشعب المصرى أن الموضوع جاد وأن التغيير قادم،

ولكن حدث أهم حدث وهو انسحاب الشرطة كلية من ميدان التحرير ومن كل ميادين مصر، وخلو مصر من الأمن، وما صاحب هذا الحدث من الانتشار المنظم للبلطجية والخارجين على القانون، والهجوم على السجون وأقسام الأمن وتهريب المساجين، ثم ترويع

الأهالى وسلب وحرق المتاجر والبيوت، وإعلان كل هذا فى الفضائيات فى بث منظم ومبرمج وكأن مصر كلها فى يد عصابات تنشر الفوضى وتروع السكان.

وهنا يأتى السؤال الخامس: (هل كان دور الإعلام والفضائيات مخططًا له فى هذه الأحداث ؟).

وفى هذه الأثناء عاشت مصر لحظة فارقة فى تاريخها ، فمصر كلها من الشمال إلى الجنوب أصبحت بلا أمن ولا دولة ، وهنا تجلت العبقرية المصرية التى تظهر فى الشدائد وبدأ الشعب شبابًا ورجالاً ونساءًا فى تكوين لجان شعبية تحمى البيوت والمصالح وكنوز مصر، وكانت أعظم صورة تجمع كل فئات الشعب المصرى وهى تحمى المتحف المصرى الذى يحوى أعظم كنوز التاريخ المصرى، وبدا المشهد وكأن الشعب المصرى يحمى تاريخه وتاريخ مصر.

وقد لوحظ فى كل هذه الأحداث أن الجيش المصرى الذى نزل إلى الشوارع لم يتعامل مع الشعب بالعنف ولم يقف ضد المتظاهرين ولكنه وفى كثير من الأحيان كان يدافع عن المتظاهرين ويحميهم، وبدأت ملحمة (الجيش والشعب إيد واحدة) ولوحظ نزول المشير طنطاوى إلى ميدان التحرير والتقائه بالشعب، وكان هو أول مسئول من النظام يظهر فى الشارع، وبدا ارتياح الشعب لموقف الجيش وقيادته، ولكن ميدان التحرير كان فى غليانه وإصراره وإعلانه عن مطالبته بسقوط النظام ورحيل مبارك، وبدأ مبارك يخاطب الشعب محاولاً ارضائه، ولكن تدخله كان له نتائج عكسية بل كان يزيد من رفض المتظاهرين للنظام والإصرار على رحيله.

وفى هذه الأحداث اتضح للجميع أن رموز النظام من حزب وطنى

ورجال أعمال وأسرة مبارك كلهم مختلفين، وأن الجميع بدأ يفكر فيما بعد رحيل النظام، وكذلك بدا أن الرئيس ضعيفًا، وكأن الجميع يريد أن يستعمله ويستثمره وهو لا حول ولا قوة إلا بالله.

وفى لحظة من لحظات التاريخ وفى الحادى عشر من فبراير خرج عمر سليمان وأعلن تخلي الرئيس عن منصبه وتكليفه للمجلس الأعلى للقوات المسلحة بإدارة شئون البلاد.

وقوبل هذا الأمر بالفرح الغامر فى كل مصر وبدأت نغمة جديدة تنتشر فى مصر وهى (ثورة الخامس والعشرين من يناير ٢٠١١)، وبعد أن سقطت كل رموز النظام، بدأ صعود القيادة العسكرية ومعها صعود رموز ما بعد الخامس والعشرين من يناير.

والسؤال السادس يكون "هل ضعف كيان مؤسسات الدولة وتهميش دورها على مدى الثلاثين سنة الماضية فى أثناء حُكم مبارك، كان من أهم أسباب سقوط نظام مبارك ؟.

إن غباء القيادة السياسية وهرم الرئيس و أطماع الوراثة لجمال مبارك و تغلغل الفساد كان هو أهم أسباب السقوط للنظام؟ إن الإجابة على هذا السؤال تحتاج لعشرات السنين من التحليل.

بين سياسة القطيع و اختلاف المعايير

لا نختلفُ جميعًا أن الفسادَ فى أنظمة الحكم وخصوصًا فى بلادنا العربية قد زاد عن الحد، وأصبح ظاهرةً تُنبىء بأخطر العواقب، وأقل هذه العواقب خطورة هو ما نراه فى بعض البلدان التى ثارت شعوبها ضد الفساد والغلاء والبطالة مما إضطر رؤسائها بالفرار إلى بلد أو الاستعداد للفرار فى أية لحظة إلى بلدٍ آخر، وهى نتيجة كانت بكل

الحسابات متوقعة ولكنها جاءت أسرعُ مما كنا نحسب، ولا نملك إلا أن ندعو الله أن يحفظ بلادنا من كل سوء ويقدر لها الخير والسلامة.

وحديثُنا ينصبُ على "وجهة نظرٍ" قد تكون خاطئة وقد تكون صائبة، وفى الحالتين فهى وجهةُ نظرٍ تمثلُ اجتهادًا ومحاولةً للفهمِ فى هذا البحر المتلاطم الممتلىء بالغيوم الكثيفة التى تحجب الرؤية، والرياح العاتية التى تعوقُ الإبحار، والأمواج الهائجة التى تزلزلُ السفنَ زِلزالاً، وهنا فإن كانت وجهة نظرنا صائبة فقد نلنا ثوابًا واحدًا على الاجتهاد وإن كانت وجهة نظرنا خاطئة فقد نلنا ثوابين والحمد لله.

وللدخول فى صلبِ الموضوع، نتساءل لماذا لا نثورُ فى بلادنا العربية وفى الشرق عمومًا إلا جماعات وليس أفرادًا، ولا نقول راينا المعارض إلا عندما يتكلم الجميع وليس كل واحد يقول رأيه أمام الجميع، لماذا نجيد الحديث عندما يتحدث الجميع ونتلعثم عندما نتكلم فرادى، هل هو الخوف من النظام أم أنه الخوف من تحمل مسئولية الرأى والاختفاء وراء تجمعات الناس؛ وهى ظاهرة عجيبة.

كما أننا ـ جميعًا ـ نكون مع الحكومة ومع النظام عندما نتكلم فرادى وفى نفس الوقت فإننا نكون معارضين للحكومة وللنظام أشد المعارضة عندما نختبىء وراء أى تجمع حتى لا نتحمل أى مسئولية، وهو سلوك معيب وخاطىء بكل الشرائع والقوانين.

لماذا نحن جميعًا شعوبًا وحكومات، معارضين ومؤيدين، مدنيين وعسكريين، أغنياء وفقراء، عاملين وعاطلين، عمال وفلاحين، متدينين وعَلمانيين، يختلف موقفنا باختلاف موقعنا، وذلك بمعنى أننا إذا كنا من المقربين من النظام الحاكم فنحن مع النظام ونؤيد النظام لأننا مستفيدين، وإن كنا من غير المقربين من النظام فنحن نعارض النظام ليس لأنه خطأ ولكن لأننا سنخسر بسبب النظام، وللدلالة

على هذا الموقف هو المثال الآتى: إذا كنا متدينين ويحكمنا التدين وأحكام الدين ولكننا من المقربين المستفيدين من النظام وكان هذا النظام ملتزمًا بالسلام مع إسرائيل فهنا سنتمسك بمصلحتنا فى القرب من النظام والتشدق بالآية الكريمة " وإن جنحوا للسِلم فاجنح لها" فنستفيد من تأييد النظام ونتمسك بالدين، أما إن كنا من غير المقربين من النظام فنعلنها حربًا دينية على النظام ونتشدق بالآية الكريمة"قاتلوا المشركين كافةً".

وفى الحالتين فالآيتين الكريمتين صواب ولكننا نحن الخطأ رغم أننا متدينين.

وبمناسبة التدين والمتدينين، ولأن معظم الحكومات الجديدة بعد ثورات الربيع العربى فى بلداننا العربية هى حكومات إسلامية وهى تيار قوى يزداد قوة يومًا بعد يوم، نسأل سؤالاً بسيطًا، وهو أننا وبعد فرحنا بكل الشباب الذى أشعل النار فى نفسه معارضةً للنظام والحكومة فى ظاهرة متزايدة ومصاحبة بتأييد من الناس، والسؤال هو (هل من يشعل النار فى نفسه ويموت من جراء هذه النار يكون شهيدًا أم يموت كافرًا ؟).

وقبل التعجل بالإجابة نُحبُ أن نتريث ونقول إنه إن كان قد يئس من ظلم النظام وقرر أن يحرق نفسه اعتراضًا ومات فهو قد ارتكب جريمتين هما اليأسُ من رحمة الله والموت كافرًا وهنا لا يجب أن نطلق عليه شهيدًا، فإذا أيدنا ما قام به فنحن ضد الإسلام، وإن لم نؤيد ما قام به فنحن ضد الحكومات الجديدة وبالتالى ضد التيار الإسلامى، فماذا يكون الحال إذًا ؟.

وفى صورة أخرى وفى بلدين كبيرين (مصر والجزائر) وبسبب مباراة فى كرة القدم وقف الجميع فى البلدين حكومة ومعارضة،

متدينين وغير متدينين، فقراء وأغنياء، كل ضد البلد الآخر فى صورة قبيحة تتناسى الإسلام والعروبة والتاريخ والجغرافيا وقلبنا الدنيا ولم نقعدها، كلٌ ينهش فى لحم أخيه الحى وكلٌ نسىَ واقعه المرير.

ونأتى إلى آخر الأمور وهو هل لو تبدلت المواقع وأصبحت الحكومة هى المعارضة والمعارضة هى الحكومة، هل ستتبدل الأحوال أم سيبقى الحال على ما هو عليه لأن الحكومة هى المعارضة ولكن تبدلت المصالح.

إننا جميعًا تحكمنا سياسة القطيع، تلك السياسة التى تعلمناها من عصور الظلم والظلام التى عاشتها أمتنا فبتنا نخاف المسئولية، ولكننا نتكلم فقط من خلال القطيع حيث لا مسئولية ولا يحزنون، كما أننا مصابين بمرض اختلاف المعايير فنكون مع الحكومة عند المصلحة ونكون مع المعارضة أيضًا عند المصلحة، وهكذا فما بين سياسة القطيع واختلاف المعايير نقفُ جميعًا في صف واحد .

معضلة الرئاسة فى مصر

كانت مصر دائمًا وتحت كل الظروف وفى كل زمان هى واحة السلامة والأمن، وكان ذلك واضحًا وضوحًا جليًا فى شكل الحكم وانتقاله فى مصر، فمصر بلد الأمن والآمان والتى أشار إليها القرآن الكريم فى عدة آيات، كان أظهرها قوله تعالى (بسم الله الرحمن الرحيم ،أدخلوا مصر إن شاء الله آمنين) صدق الله العظيم.

فانتقال الحكم كان أساس الطابع الأمنى لمصر حتى فى أوقات الثورات، كان الحكم ينتقل آمنًا وسلسًا بشكل التضاريس المصرية الهادئة والمناخ فى مصر، ومثال ذلك هو ثورة المصريين ضد المماليك وانتقال الحكم بسلاسة إلى محمد على، وكذلك ثورة

الجيش المصرى ضد حكم أسرة محمد على وانتقال الحكم سلميًا إلى محمد نجيب ومن بعده جمال عبد الناصر، وقد كانت طول فترة الحكم للحكام فى مصر ومنذ عهد الفراعنة هو نظير شؤم فى مصر ولنا فى امتداد حكم محمد على وتدخل الدول الكبرى فى تنازله عن الحكم لإبنه إبراهيم باشا.

وما اشبه عصر مبارك بالبارحة، فمصر كانت تحت حكم مبارك فى أيامه الأخيرة وهو يخطو نحو عامه الثلاثين فى حكم مصر وهى فترة طويلة فى ميزان الحكم وخصوصًا فى مصر مما فتح الباب على مصراعيه للمصريين كى يدلوا بدلوهم فيمن سوف يحكمهم بعد مبارك وقد ناهز الثمانين من العمر بقليل، وبدأت بعض الإشارات إلى أنه لن يرشح نفسه للانتخابات الرئاسية مرة أخرى، وهى حالة فريدة لم تعشها مصر من قبل، فالرئيس مبارك لم يختر نائبًا له مثل سابقيه من الرؤساء عبد الناصر والسادات حتى تنتقل الرئاسة بسلاسة.

إن مصر، فى أخريات حكم مبارك، كانت تعيش معضلة كبيرة فى الرئاسة ففى كل الأحوال كان هناك خطرًا كبيرًا وأحسب أن المصريين كانوا فى وضع لا يُحسدون عليه.

ولتوضيح هذا الوضع نحلل موقف الرئاسة فى مصر فى ذلك الوقت وهو ما قبل ثورة يناير مباشرة، وقد كانت هناك ثلاثة احتمالات :

الاحتمال الأول: وهو استمرار الرئيس مبارك بصحة جيدة وموافقته على الترشيح للرئاسة فى الفترة القادمة فى نهاية عام ٢٠١١ وهنا تكون الحالة أسوأ، فمبارك صحيًا لم يكن ليستطع تحمل أعباء الرئاسة وسوف تتدخل اليد القوية كى تحكم من وراء مبارك وهذه اليد لن تخاف الله لأنها ليست مسئولة فيكون الوضع من سيىء إلى

أسوأ ، وقد تقوم بعض الصراعات على الحكم ويزداد الوضوع سوءًا على سوء.

والاحتمال الثاني: وهو وفاة الرئيس مبارك فجأة قبل موعد الانتخابات الرئاسية ، وهنا تكون مصر بلا رئيس وحسب الدستور يحكم رئيس مجلس الشعب وهو من رجال الرئس مبارك فى ذلك الوقت وسوف يعمل على ترشيح جمال مبارك ابن الرئيس للرئاسة ، وقد يقبله الشعب وقد يرفضه وهنا تتدخل القوى الكبرى فى موضوع الرئاسة وتأتى بحل ليس لمصلحة مصر وشعبها ولكن لحفظ مصالحها هى ، وهكذا يكون الوضع أسوأ ما يكون فتظهر الصراعات وقد تؤدى إلى انقسام الشعب وتتحول مصر إلى صومال أو حتى عراق آخر.

والاحتمال الثالث : وهو أن تأتى فترة الانتخابات ولا يترشح الرئيس وحتمًا سوف يترشح جمال مبارك عن الحزب الوطنى وحتمًا سوف يترشح آخرون عن أحزاب أخرى أو مستقلين، وقد يكون منهم عمرو موسى والبرادعى وغيرهم ، ورغم أن معظم من تم ذكرهم ليس له شعبية إلا عمرو موسى ، وإن كنت أعتقد أنه محسوب على الحزب الوطنى وسوف يتم إتفاقًا ما بينه وبين جمال مبارك ، وهذه الحالة قد تكون الأقل سوءًا ولكنها أيضًا هى أسوأ من غيرها فباب الصراعات فى كل الأحوال سوف يفتح باب جهنم لمصر وللمصريين.

وبنبض الشعب المصرى كان نداء كل المصريين للرئيس مبارك أن يعين نائبًا له يتولى الحكم فى حالة غيابه ويتم ترشحه للرئاسة ضمن مجموعة من المرشحين وأن يكون تداول الحكم سلسًا وقانونيًا ، فنحن فى مصر ومنذ الفراعنة نؤمن بالمقولة الشهيرة وهى (مات الملك عاش الملك) أى نحزن لوفاة الحاكم ونفرح للحاكم الجديد.

وكان لسان حال الشعب المصرى يقول: يا سيادة الرئيس أكتب أسمك فى باب الخلود فى مصر التاريخ وأعلن نائبًا لك، وندعو الله ألا يكون هذا النائب هو جمال مبارك، وإن كان جمال مبارك يرى فى نفسه الكفاءة للحكم فليرشح نفسه وليكن الحكم للشعب.

هكذا نرى كيف كانت معضلة الحكم فى مصر مبارك، فتحت أى ظرف هناك مشكلة وأى مشكلة، ولكن كان قدر الله رحيمًا بالمصريين، فقامت ثورة الخامس والعشرين من يناير وتم حل معضلة الرئاسة فى مصر برحيل مبارك.

ولكن هل استراحت مصر أم بدأت معضلة مصر وليس الرئاسة؟.